

عن الذهاب والعودة.. وما بينهما

د. خليل فاضل

الذهاب

«والشيطان خالقنا ليجرح قدرة الله العظيم».

(صلاح عبدالصبور)

وطئت بلدتي بعد زمن، وطئتها وأنا متبلد تماماً، أعطيت الحمال الحقايب وسرت أمامه في الطريق المعروفة، ثمة رائحة عفن تنتشر داخلي وحوالي، خطوي بطيء، وعيناى تمسحان الأشياء في هدوء، هدوء جنازى. لحظت أن هناك ازدحاماً في الكم والأشياء ممترجاً بلزوجة حادة. زعقات الكواء والنجار والبقال والحياط تطرق أذني بسخرية، نداءات جوفاء متلكئة.

(اتفضل... اتفضل اشرب شاي، حمد الله ع السلامة

يا بيك).

خطوي ما زال متبلداً، طين الأرض الممتزج بالروث ينداح على كل أجزاء جسدي، وجسدي يرتج، أقف عند عتبة بيتنا، تأخذني أمي في حضنها، تقبلي، تهدهدي وتواصل حديثها عن اشتياقها لي، فعلت أختي الشيء نفسه، دققت النظر في الأثاث والجدران، تباطأت، ربت على المنضدة المقامة وسط الصالة، والمقاعد والأبواب والحوائط، ولما اطمأنت لها نفسي تيقنت من عدم تغيرها ومن ارتياحها كجماد مستكين.

التفت إلى أمي وسألتها عن صحتها وحالها مع الدنيا وكيف الشوق بها؟ ثم تابعت أختي بالسؤال، وبعدئذ تولت أمي وأختي مواجهتي بسؤالها عن أخي وحاله مع الدنيا وكيف الشوق به!!! كانت الردود كلها مقتضبة... وفي الصميم.

مرة أخرى جلست في حجرات البيت. شممت أشيائي القديمة، القديمة جداً، انبعثت منها روائح غريبة أثارني فسرعت أqlبها لأبحث عن شيء ما بها لكني لم أجده.

أعدت أمي طعاماً طيباً لي، كان خصيصاً ومجهزاً بدقة.

التهمة وأتبعته بماء مثلج ثم استسلمت لسكون قطعه ثغاني عن أحوالي وأحوال الآخرين حتى عاد أبي من عمله فتلقفني بطريقة أمي وعاودنا سؤال أنفسنا مرة أخرى عن الأحوال مع الدنيا، عن الصحة، وكيفية الشوق بنا... .

ولما انتهينا، لجأت إلى فراشي، ورغم احتياجي الشديد إلى النوم، إلا أن أرقاً مزعجاً ظل يناوشني فاسترسلت في عالم لا نهائي بدأه الضوء الأصفر المنبعث من اللمبة المضاء للونس. تلمست الغبار الذي تركه السفر على جسدي، تشابكت رؤى عديدة داخلي، تطاحت، ولما لم تنتصر منها واحدة غلبي النعاس فمنت ونمت ونمت...

اليوم الأول

الزلط في السكة الحديد أنواع، نوع بين الفلنكات: أسود بفعل زيت القطار، حار بحرارته، سجين بين قضبانه، في أحيان كثيرة كان يحلو للصبية أن يتبولوا فوقه فيحدثوا صوتاً ثاقباً وطرطشة واتساعاً لمساحة المكان المغمور بالمياه الصفراء... ونوع عند الشوك لا يللمسه أحد، ولا يلحظه أحد، فهو في حماية. ونوع أخير متماسك مع الاسمنت المسلح ساكن في جدار السكة، تتكسر من فوقه الأغذية الاسمنتية فيتعرى فيشاهد بوضوح المتبرزون داخل السكة...

اعتليت السور من خلال الفتحة الموجودة من زمن، فتحة غير مشروعة فتحها بعض الخارجين عن القانون، توقفت وداعت الزلط العاري في السور، ربت فوقه في حنان. سألته عن صحته وحال الدنيا معه وكيف الشوق به. أخبرني أن القطارات تنقل أمطاً عجيبة من الناس كل يوم في الصباح وتعود بهم آخر النهار، وأنه في الليل تأتي نساء بأجنة مجهزة وترميها في الغور، وأن صبياناً شاذيين يمارسون الجنس، وأن بنات وأولاداً يقبلون بعضهم

- بعد الانتهاء من الحصول على الشهادة!
- ومتى تأتين؟
- لن أعود.
- تبدين متغيرة كثيراً.
- إني مريضة!
- متى سألقاك ثانية؟
- بعد ساعة.
- أين؟
- داخل هذا البيت ذي الباب الموصل!
- سأنتظرك!
- لا... سأمرّ عليك.

لم تأت. ولم تمرّ، انتظرت طويلاً دون فائدة، فجأة خرج لسانها من شق الباب الموصل، استطال تضخم، أت إليّ خلف السكة، صفعني في قسوة، أفقت، سرت حتى البيت، دون أي انتباه أو تعديل لتوزيعات الإضاءة، ضاجعت الفراش حتى الصباح.

العودة

حملت الحقيبة المتخمة، أعطيت وجنتي لقبلا أبي وأمي وأذنيّ لنصائحهما ويديّ لنقودهما بعد أن عددتها.

ذرت الطريق كالفتي المغوار أفلج السكة قبل الجميع بشيء ما يشبه الحماقة. اهتزت العربية فاهتز معها جسدي، دخلت الشمس إلينا في تحدّ. غفوت وأفقت ثم غفوت وأفقت حتى وصلنا إلى العاصمة، أفرغت محتوياتي ومحتويات الحقيبة، توجهت إلى أصدقائي. قبلتهم وسألتهم عن حصتهم، عن حال الدنيا معهم، وكيفية الشوق بهم، ولما أجابوني بإجابات تشبه إجابات أسرتي مضيت. وقفت خارج مدرج الكلية راقبت زملائي وهم منهمكون في الكتابة والإنصات، دعوني إلى الدخول لكنني أحجمت.

أيقظت صديقاً قديماً من نومه، أخبرته أنني سأقص عليه أخباراً هامة، اغتسل ثم أعدّ الشاي وجاء بي إلى الشرفة في اهتمام. أصاخ السمع. حكيت له عن كل شيء. أنزل قدميه الحافيتين من على سور الشرفة، دق بهما البلاط، ونظر إليّ بغرابة، ثم قال بهدوء شديد:

- لقد صرت فكها... ذا دم خفيف!

ويحتضنون، كذلك فإن هناك لصوصاً يتخفون، وامرأة عجوزاً تأتي فجر كل يوم لتقطف زهر الشوك وتسير في اتجاه الغرب، وقال إنه يسمع تفكهاات الرجال، وأحاديث السادة، وشكاوى الزوجات. شكّا لي من أن بعضهم من كل الأصناف السالفة الذكر، يسمح فيه الشحم والمخاط والدم والقيء وسوائل أخرى مخزبة ومقرفة ومنفرة للغاية... ثم عبر لي - رغم هذا كله - عن ارتياحه لسكنه الدائم في السور ولتزاوجه السعيد مع الاسمنت والحرسانة، وأنه محسود من قبل كل أنواع الزلطف الأخرى التي تهج ويقذفها العيال على العشاق ويرميها الصبية على الأشقياء ممن يقضون حاجتهم وسط السكة.

عدت إلى البيت، وعندما حان موعد النوم، أطفأت اللمبة الصفراء المضاءة للونس، ونمت حتى الصباح.

اليوم الثاني

بدت كل الأشياء كلها بدون استثناء، بليدة وصماء ولزجة. اتفقت أنا والأصدقاء على أن البلدة لها خاصة وحيدة مميزة متواجدة في جميع الإناث ومنتشرة بينهن مهما كانت أعمارهن، ألا وهي أنهن يمتلكن أردافاً كبيرة، قطعت المشوار من طرف البلدة حتى الطرف الآخر دون مجهود وبتمتع شديد. اتفقت أمني وأختي على أني شارد هذه المرة. أسرفت في تأمل الحوائط والمحال التجارية، الحوذيين والحميز وتعابير السخط الممرورة فوق وجوه الخدم.

اللقيا

قالت لي في دهشة محملقة:

- غريبة؟ مفاجأة! منذ زمن لم تأت! ماذا أت بك؟!
- كيف حالك، وحال الدنيا معك؟ وكيف الشوق بك؟
- مهيزة أكره نفسي والناس!
- وأنا؟!
- الغائب لا يدرج في الحساب!
- شعرك منشور وطويل!
- عيناك خابيتان.
- أسنانك صارت كبيرة!
- شكلك ممتقع، متهالك...
- ما رأيك في الأشياء؟!
- سأهجر البلدة!
- متى؟

